بنت الهدى شهيدة العراق

المقدمة

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ;وَيَسّرْ لي أَمْري; َواحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ;يَفْقَهُوا قَوْلِي.((

الخطاب أداة توصيل تتولى نقل المضامين الفكرية، والسياسية، والمشاعرية من المعطي (الخطيب) إلى المتلقي (المخاطَب)، وما من حركة سياسية، أو ثورة جماهيرية، أو دولة قوية إلا ولها خطيب يتولى طرح أهدافها، وتحديد آليات تحقيقها ويحذر من الأخطار المحدقة بها.
لحظة الخطاب هي لحظة الكلام التي تمنح المعطي قوة التأثير في المتلقي، ومَلَكة النفوذ إلى عمقه، ويشعر معها أنه بقدر ما ينطلق من عمقه كخطيب سينفذ إلى عمق المتلقي كمخاطَب، ولا يتأتّى له ذلك ما لم يتمتع بوعي مركب، وعي المبادئ التي يدعو لها.. الواقع الذي يحيط بشعبه.. المخاطر المحدقة به.. الطموحات التي يتطلع إلى تحقيقها، والبرامج التي تتكفل بإحداث النقلة النوعية المنشودة، وكذلك وعي البنيوية الخطابية التي تمتزج فيها مفردات اللغة بدقة المفاهيم، وصدق المشاعر باتجاه التقارب الجادّ لأحاسيس الناس.
العطاء والأخذ كمادة للتداول، والمعطي والمتلقي كأطراف للتداول، لا يُشكّل ذلك بقرار، أي حين يجالس الإنسان مَن هو أكثر منه ثقافة وأسبق تربية، لاشك أنه أمام واقع التلقي، إذ لا يوجد مُعطٍ مطلق ودائم ومُتلقٍ مطلق ودائم؛ لأننا لسنا معصومين أو ملائكة، إنما هي نسبية تحكم الطرفين..

هذه الخطب أفرزتها معاناة مستوحاة من عذابات إنسان العراق والعالم، وصاغتها طموحات الإنسان ذاته، وحددت اتجاهها إرادة الإنسان المعطي؛ لذا كانت مرتجلة دونما تحضير مسبق أو زخرفة متكلفة تظهر فيها الصنعة الكتابية وهذا هو ديدن الدكتور ابراهيم الجعفري في كل خطبه.

مؤسسة الكتاب الثقافية

بنت الهدى شهيدة العراق

كلمة الدكتور الجعفري في الحفل التأبيني الذي أقامه مكتب المرأة في تيار الإصلاح الوطني بذكرى استشهاد العلوية الطاهرة آمنة الصدر
2011-4-16

بسم الله الرحمن الرحيم
((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) (التحريم /11) ..

خلود الإنسان رجلاً كان أم امرأة مرتبط ارتباطاً مباشراً بقوة موقفه، والتضحية من أجل ذلك الموقف، الذي يعكس في صياغته ومظهره ما يحمل من قوة الفكرة وقوة الإحساس؛ لذلك وقف الشهداء يطاولون بعظمة جباههم عظمة التأريخ، وينتقلون من جيل التضحية إلى جيل التلقي على الرغم من مرور الزمن، وتعاقب الدهور؛ لذا يبقى الشهيد ليس فقط حياً عند ربه يُرزَق بل يبقى الشهيد حياً في وجدان أمته، ويتوالى في حضوره مع توالي العصور والأجيال، ونحن نحيي وإياكم ذكرى استشهاد الصدر الأول (قدس الله نفسه الزكية) وكذلك الشهيدة العلوية بنت الهدى أجد من الواجب أن أمرّ بمحطات متعددة؛ لنقتبس من سيرتها ما يقوّم واقعنا حتى تنبض الحياة من حولنا بتلك الأحاسيس الصادقة التي اختزنتها في قلبها الكبير..

الشهيد وهو يصنع مرحلة الشهادة لابد أن يتوافر على عنصرين أساسيين.. العنصر المعنوي وهو قلبه، وكيف يعمر بالإيمان وروحه الطاهرة وهي تنشد إلى الله (تبارك وتعالى)، وتمتزج هذه العناصر المعنوية لتضفي عليه طابعاً معنوياً تجعله يتجاوز حدود المادة، ويُطلّ إطلالة يقينية على عالم الغيب، وهذا هو الحد الفاصل بين المؤمن وغير المؤمن بنص أول سورة البقرة:
((الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)).

يُطلَون على الغيب إطلالة واقعية ليستلهموا منه طاقة هائلة وزخماً متدفقاً في كل ميدان من ميادين المواجهة، ولو لم يكن للشهيد مثل هذه الطاقة في داخله من القلب العامر الإيمان والعقل المتنور بالفكر لما استطاع أن يضحّي بنفسه من أجل الآخرين، وليس هذا فحسب إنما يتوافر للشهيد العامل الاجتماعي؛ حتى يبقى خالداً

في ضمير أمته.. العامل الاجتماعي ومدى صدقية سلوكه حتى يتحول إلى شعلة متوقدة يضيء الدروب لجيله المعاصر وأجياله اللاحقة..

إن الأمم الحية تبقى تخلّد شهداءها، وتدور حول مرتكز التضحية والبطولة حيث يقف الشهيد في قمة التضحية، ويتحول إلى نقطة ارتكاز تدور الطبقات الاجتماعية جميعاً حول تلك النقطة؛ لذلك اهتمت شعوب العالم في الغوص بالتاريخ لتستلّ شهيداً ما، وتتغنّى باسمه، وتشدّ كل ما لديها من أبناء وبنات إلى ذلك الشهيد.. وبذلك يتحول الشهيد إلى طاقة متفجرة تهب كل الأجيال هذه القوة للانشداد إلى الجانب المعنوي والجانب الاجتماعي.. من هنا كانت الأمم الحية دون غيرها تخلّد شهداءها، وتمجّدهم، ولا تستحي من التحدث عنهم.. جيل الشهيد ربما يجني على الشهيد فيكون جيل الجناية، وجيل السكوت، وجيل الخنوع والتقهقر والتراجع، وجيل الظلم غير أن الأجيال التي تتلقى فكر الشهيد وقلبه وإحساسه وإيمانه، وإن كانت متأخرة في الزمن لكنها متقدمة بالوعي..

الشهيد يعيش في ضمير أمته، ويعبر من خلال جيله إلى الأجيال اللاحقة؛ لذا كان سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) حياً في ضمير الناس، وامتد ليتجاوز دائرة الخاصة والمجتمع الخاص والمذهب الخاص، وامتد إلى الآخر من أبناء الطوائف والمذاهب والديانات حتى خرج خارج سور الديانات؛ ليلتقي الإنسان في أقصى ما يكون عليه من مديات الفكر مهما كان الفكر فكراً منحرفاً، وهذه هي حمولة الشهيد المعنوية التي يستحق أن يتسنم موقعاً كهذا مادام قد صدق فيما حمل من فكر، وصدق فيما حمل من إحساس، وضحى من أجل ذلك الفكر وتلك القيم.
بنت الهدى تسنمت قمة متقدمة في الفكر والسلوك والقيم والأحاسيس فكانت جديرة أن تحتل موقع الخلود إذا ليس فقط عند الله (تبارك وتعالى):
((وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)).

أي عطاء أكثر من هذا العطاء، وأي سعادة أروع من هذه السعادة بأن يعيش الإنسان مرحلة القرب المعنوي وهو في جنب الله، وأن يعيش حالة الرزق المتراكم والمتواصل والمستمر وهو في تلك النعمة غير أن الخلود في عرف الناس كذلك عندما يعيش الشهيد محتلاً موقعاً متقدماً، وكلما جاء جيل وجد أن الشهيد لم يزل يسبقه من حيث التضحية أما عندما يزدان عقله بفكر متقدم عن جيله وعندما يجد الإنسان والجيل أنه أمام الشهيد الذي إذا نظر إليه فإنه ينظر إليه إلى الخلف أنه فكر قضى عليه الزمن، وإنما صنع مستقبلاً، وأنه كلما تمادى في المضي إلى المستقبل يجد الشهيد قد سبقه بفكره وسلوكه، وكل ما يحمل فيتألق الشهيد، ويعتلي مكانة فوق مكانته، ولم تستطع يد الظلم أن تخطف منا شهداءنا لو لم تكن الأرضية الاجتماعية قد سمحت بذلك.

التـأريخ يعلمنـا دروسـاً كثيـرة، ومنهـا: أن الـذين جنـت علـيهم بعـض الحكومـات أو المجتمعات المتخلفة في مختلف منـاطق العـالم كالجيل الذي حكم علـى السيدة (جـان دارك) عـام 1429 بالهرطقـة، وحرقوهـا وهـي حيـة، ولـم تبلـغ مـن العمـر إلا 18 عاماً، وبقيت في ضمير الأمة الفرنسية إلا أن الأمة الفرنسية عبر قرون من الزمن سـدرت فـي غفلـة النـسيان والتخلـف والجهل، وكانـت تلعنهـا جيلاً بعد جيل إلـى ان استفاقت متأخرة، وبدأت تتحدث عن (جـان دارك) من جديد.. الأمم الحيـة كأمتنـا لا يبارح خاطرها بأن الشهيد هو سر القوة، وسر الاستمرار، وسر الصعود إلـى أي قمة من القمم..

الأمـم الحيـة لا تـستحي مـن أن تمجّـد شـهداءها، والأمـة التـي لا تمجّـد الـشهيد أمـة لا تستحق الحياة.. الشهيد ليس مسألة حقبة من السنين عاش فيها، ثم يموت، كمـا يمـوت الآخرون، وليس منـة علـى الـشهداء حـين نحيـي ذكراهم، ونمشي علـى خطـاهم، بـل نجد أنفسنا مضطرين لأن نـستجلي قوة الفكرة بقوة الشهيد وبتجسيده، وعليـه يكـون مـن الطبيعـي أن نعيش الـشهداء بكـل مـا حملـوا من أفكـار، وبكـل مـا حملـوا لنـا مـن أحاسيس.

للشهيد نمطيـات سلوك، وعلينـا أن نراجـع دائمـاً كيـف كـان يعيش الـشهيد فـي حياتـه مـادام قد تـسنم مثل هذا الموقـع، ولابـد أن نـتعلم منـه؛ لأنـه يبقـى معلمـاً، وتبقـى مـدة التعليم أطـول مـن مـدة حياتـه علـى مـستوى البـدن، وللمـرأة نـصيب منهـا كبيـر فقـد جسدتها بـأروع صـورها المعاصـرة الـشهيدة بنـت الهـدى امتـداداً لجـدتها الزهـراء وعمتها زينب (عليهما السلام).. ربما تثار استفهامات: هل إن المرأة قدوة للمرأة أم إنها يمكن أن تكون قدوة للرجل أيضاً، نقول: إن المجـالات التـي تخـرج فيهـا المـرأة هـي نفـس المجـالات التـي يخـرج فيهـا الرجـل، ولـيس هنـاك مجـال ذكـوري وآخـر أنثوي..
مادامت المرأة قد برعت وهي تخوض غمار التصدي، وسجلت رقماً متقدماً فـي كل حقل من الحقول فهي جديرة بأن تكون قدوة للآخرين.. وليس اعتباطاً أن تقول الآية القرآنية الكريمة:
((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)).

امرأة تكـون مثـالاً للمؤمنين؛ لأنهـا تحمـل فـي داخلهـا حمولـة معنويـة وحمولـة فكريـة انعكست علـى شكل موقـف مـع أعتـى رجـل وهـو فرعـون جـاءت بهـذا العمـق وهـذا الانشداد إلى الله (تبارك وتعالى)، فمن الجدارة أن تحتل موقعاً متقدماً.

اليوم في المجال السياسي تجدون بناتنا ونساءنا في كل حقل من الحقول يتقدمن فـي الصفوف الأولى، وفي العراق خرجت المرأة، وتألقت، وارتقت علـى سلم التصدي السياسي والإعلامي والفني وفي الاختصاصات المختلفة، واستيقظ العالم بعد أن كان

غافلاً عن أن المرأة يمكن أن تحقق ما حققته، وكانت المرأة العراقية الأنموذج الرائع حيث تمارس دورها بكفاءة عالية، وتمارسن الخطاب السياسي والإعلامي والأداء الإداري والتنفيذي في كل حقل من الحقول.

نحن اليوم نقطع أشواطاً على طريق الوعي والثقافة، لكن لم نصل بعد إلى مستوى ما نطمح إليه بأن يأخذ المجتمع حقه بتصدر المرأة إلى جانب الرجل في كل مؤسسة من المؤسسات وكل مجال من المجالات، بل علينا أن نمارس، أو نتطلع إلى دور المرأة في مؤسسات الدولة، وأن نجعل من البيت مؤسسة، بمعنى أن المرأة وهي في البيت ليست الركن الذي يمثل حالة التخلف والكسل والإهمال.

حتى نبني المستقبل علينا أن نجعل من البيت مصنعا لعناصر القوة للرجال والنساء.. علينا أن نعتبره محطة تمويل فكري وقيمي وسياسي وبكل شيء.

الناجح منكم في أي مجال من المجالات صنعه البيت، والكفوء المتقدم ما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه لو لم يكن وراءه أبوان.. الأم تتقدم على الأب خصوصاً في السنوات السبع الأولى؛ لذلك ينبغي أن نحوّل هذه المفاعلات بالمعلومات إلى مفاعلات ثقافية بالمعنى التربوي أي تحويل الفكرة القوية من عالم العقل إلى عالم القلب لتمتزج بالعاطفة، ثم تنطلق إلى حيز التطبيق، فتكون آليات تطبيقية تتولى عملية بناء المجتمع، وتعالج ظواهر الشذوذ والفساد والانحرافات التي حصلت..

يبقى لي أن أشير إلى أن 4/9 هذا اليوم التأريخي العظيم الذي سقط فيه الطاغوت كان يوماً لحدثين كبيرين في تاريخ العراق.. يوم عروج الشهيد ويوم سقوط الجاني.. ما كان اعتباطاً، ولا صدفة.. لا يوجد شيء صدفة لعل الله (تبارك وتعالى)، أراد بذلك أن 4/9 إحدى جنايات النظام المقبور الذي تحركت فيه قوات أجنبية، ودخلت العراق بجيوش جرّارة تقصف، وتوجّه القذائف، لكن إرادة الشعب سبقت تدخل القوات الأجنبية وسبقت حرب الخليج الثالثة، بل سبقت حرب الخليج الثانية، بل سبقت حرب الخليج الأولى كل تلك الحروب بدأت، وانتهت، وبقي الشعب العراقي يواجه بصدر أعزل ذلك النظام؛ حتى يعطينا هذا الدرس الذي جاء في الحديث القدسي على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):
(الظالم سيفي أنتقم به وأنتقم منه).
(اللهم أشغل الظالمين بالظالمين).

حتى لا يرتاب أحد بأن هذا اليوم ربما كنا فيه على موعد مع القدر بأن اليوم الذي سقط الصدر مضرجاً بدمه في 4/9 هو ذات اليوم الذي يسقط فيه النظام، وقد قال السيد الصدر (رضوان الله تعالى عليه) لتلك الشرذمة: (إنكم ستهدرون دمي لكن دمي سيكلفكم دولتكم)..

فكر الصدر وفكر الشهيدة بنت الهدى وفكر الصدر الثاني وفكر كل الشهداء أمانة في أعناقنا، وينبغي أن نحيي ذكراهم، ونعيش أهدافهم وأفكارهم ومشاعرهم وأحاسيسهم ونظرياتهم وطموحاتهم وآمالهم وآلامهم، ونعيش كل شيء فنكون قد أحيينا ذكراهم.. أتمنى لكم الموفقية في حمل الأمانة...
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.